

معرف الكائن الرقمي: (DOI)10.54239/2319-025-001-004

استراتيجية الأمير عبد القادر العسكرية وتأثيرها على قادة جيش الاحتلال الفرنسي

Emir Abdelkader's military strategy and its impact on the leaders
of the French occupation army

د. غانم بودن*

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية

جامعة تيبازة

bouden.ghanem@univ-tipaza.dz

تاريخ القبول: 2026/05/01

تاريخ الإرسال: 2026/01/14

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الاستراتيجية العسكرية للأمير عبد القادر الجزائري في مقاومته للاحتلال الفرنسي، وإظهار تأثيرها على تقدم الجيش الفرنسي في داخل الجزائر، حيث ساهمت هذه الاستراتيجية في خلط حسابات قادة جيش الاحتلال والحكومة الفرنسية على حد سواء، إذ كانوا يعتقدون أن سقوط حكومة الداي حسين كافية للسيطرة على كل الجزائر دون مقاومة تذكر.

فالأمير عبد القادر قاد مقاومة وطنية ضد جيش الاحتلال الفرنسي دامت خمس عشرة سنة، تمكن من خلالها من عرقلة المشروع الاستعماري وإرباك الحكومة الفرنسية التي فرض عليها منطق التعامل بالندية (دولة مقابل دولة)، وقد استمد الأمير عبد القادر هذه القوة من حسن تنظيم جيشه ودولته واستراتيجيته العسكرية التي شكّلت تجربة رائدة في العالم الإسلامي آنذاك.

* د. غانم بودن، جامعة تيبازة



الكلمات المفتاحية: المقاومة؛ التنظيم؛ التسليح؛ البيجو؛ التافنة؛ التخطيط؛ المشاة؛ المباغطة.

Abstract:

This study aims to demonstrate the military strategy of Emir Abdelkader in his resistance to the French occupation, and to demonstrate its impact on the advance of the French army inside Algeria. This strategy contributed to confusing the calculations of the leaders of the occupation army and the French government, as they believed that the fall of the government of Dey Hussein was sufficient to control all of Algeria without any significant resistance.

L'Emir Abdelkader led a national resistance against the French occupation army that lasted for fifteen years, during which he was able to obstruct the colonial project and confuse the French government, which imposed on him the logic of dealing as equals (state to state). L'Emir Abdelkader derived this strength from the good organization of his army and state and his military strategy, which constituted a pioneering experience in the Islamic world at that time.

Keywords: Resistance; Organization; Armament; Bugeaud; Tafna; Planning; infantry; surprise attack.

- مقدمة:

بعد سقوط مدينة الجزائر والسلطة الرسمية العثمانية سنة 1830، عمل جيش الاحتلال الفرنسي على مد نفوذه داخل الجزائر، وهو الأمر الذي جعل المجتمع الجزائري في مواجهة تحدٍ كبير، إذ كان لابد من وقف الزحف الفرنسي الاستعماري. وفي خضم هذه الظروف، برزت شخصية الأمير عبد القادر الجزائري كأحد أهم قادة المقاومة الوطنية، أين جمع بين القيادة العسكرية والسياسية، وبين البعد الجهادي والتنظيمي والاستراتيجي.

وفي هذا الإطار تندرج الاستراتيجية العسكرية للأمير عبد القادر كموضوع على قدر كبير من الأهمية، حيث أن ظروف نشأة دولته جعلته يوجّه اهتمامه بالدرجة الأولى إلى الناحية العسكرية بحكم تعرض البلاد لحملة عسكرية فرنسية دون إغفال باقي الجوانب، حيث عمل على تطوير أساليب عسكرية مرنة ومبتكرة، مكّنته من مواجهة الجيش الفرنسي وعرقلة تقدم المشروع الاستعماري وتوغل القوات الفرنسية في المناطق الداخلية رغم اختلال موازين القوة. وهو ما يجعلنا نتساءل عن طبيعة هذه الاستراتيجية العسكرية التي جسّدت عبقرية الأمير عبد القادر ودورها في التأثير على قادة جيش الاحتلال الذين أُجبروا دائماً على إعادة النظر في استراتيجياتهم العسكرية وتكييفها مع طبيعة الصراع في الجزائر.

وانطلاقاً من ذلك، يسعى هذا المقال إلى تحليل الاستراتيجية العسكرية للأمير عبد القادر، والكشف عن أبرز خصائصها، مع إبراز مدى تأثيرها على قادة الجيش الفرنسي وأساليبهم القتالية، وذلك من خلال مقارنة تاريخية تحليلية تُبرز التفاعل الديناميكي بين المقاومة الوطنية والسياسة العسكرية الاستعمارية.

1- تنظيم جيش الأمير عبد القادر:

رغم حداثة سن الأمير عبد القادر، فإنه أدرك أهمية وجود قوة عسكرية منظمة تتولى الدفاع عن كيان الدولة الوطنية المنشأة حديثاً وتواجه جيش الاحتلال الفرنسي، ولذلك بادر منذ البداية إلى التعبئة والتجنيد من أجل تأسيس الجيش، وقسمه إلى:

1-1- الجيش النظامي:

تشكّل الجيش تحت نظر الأمير، وكان هو الذي يسهر على تنظيمه وتصنيفه (Alex Bellemare, 1863: 91)، وكان مكوناً من 8000 جندي مشاة و2000 فارس و240 مدفعي. ولجأ الأمير إلى التجنيد الاختياري حيث عقد مجلساً عمومياً بين رجال الدولة وأعيان الرعية وبينهم فيها فوائد العسكر النظامي، وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه، فأجابهم الجميع ونادى الناس في الأسواق دعوة للجهاد في الدخول تحت اللواء المحمدي، فسارع

الناس طوعا للتقييد في الدفاتر الأميرية (محمد بن عبد القادر، 1903: 120)، إذ انخرط فيه كل البالغين ما بين (15-25 سنة)، واشترط الأمير في ذلك: (فريدة قاسي، 2012: 199-198)

- أن يكون مسلما جزائريا عاقلا بالغاً حراً.

- صحيح الجسم قوي البنية.

- أن يُدَوَّن اسمه في السجلات الرسمية لتحديد واجباته وحقوقه.

- أن ينصرف إلى القتال انصرافاً تاماً.

وقسم الجيش إلى ثلاث استعدادات: وهي المشاة وسماهم العسكر المحمدي، القوم الراكبون وسماهم الخيالة (الفرسان) وأهل المدافع الصواعقية وسماهم الرماة الطوبجية (المدفعية).

- المشاة: (العسكر المحمدي)

عزم الأمير على تكوين جيش عصري، وانتدب لأجل ذلك بعض المدرّسين الأجانب للقيام بتلك المهمة، واشترى الأسلحة الحديثة، وبني مصانع الذخيرة والمدفعية وسك النقود (Un soldat d'Afrique, s d: 23)، وصرّح الأمير للجنرال دوماس (Daumas) «لو كان لدي الوقت، كنت سأستخدم أسلوباً مشابهاً للأسلوب الذي يستخدمه الفرنسيون للحصول على الجنود. ولم يمنع ديني من ذلك، لأن السلطان يستطيع أن يلجأ إلى التجنيد لإنقاذ بلاده التي غزاها المسيحيون» (Alex Bellemare, 1863: 226)، وقد جاء الأمير بمدرّبين متخصصين لجيشه، حيث كان مدربو قوات المشاة النظامية الخاصة بالأمير من جنود النظام القادمين من تونس أو طرابلس أو من الفارين من الجيش الفرنسي، وقد التزم بقواعد وضع تلك القوات بنفسه، وكان يتعامل في ذات الوقت مع التدريبات والمناورات والأجور والملابس؛ وكان يقود سلاح الفرسان بنفسه (Commandant J. Pichon, s d: 85).

- تنظيم العسكر المحمدي: قسّمه الأمير إلى كتائب، تضم كل كتيبة مائة جندي، وجعل على كل مائة جندي سياف (يوز باشي)، وجعل له كاتباً، وجعل على كل عشرة سيافين آغا (رئيس العسكر المحمدي)، وقسم كل مائة إلى ثلاثة أقسام، وجعل لكل قسم خباء

(خيمة من الصوف تضم 33 جندياً)، وعيّن على كل خباء كبيراً سماه رئيس الصف، وجعل له خليفة إضافة إلى الطباخين والسقا (محمد بن عبد القادر، 1903: 122). ويقوم رئيس العسكر بالنظر في سيرة السيّافين ورؤساء الصفوف مع العسكر المحمدي، أما السيّاف فمهمته تفقد أحوال المائة كل يوم إثنين وخميس، أما الكاتب فمهمته تعليم الجنود وإقامة الأذان والصلاة، ويرأس الكتاب الباش كاتب، ووظيفته كتابة أمور الجيش كالرواتب والأكسية والديون وتعليم فرائض الوضوء والصوم والعقائد (فريدة قاسي، 2012: 202-203).

- الفرسان:

أما بالنسبة لسلح الفرسان النظامي الخاص فييّ الأمير بأنهم لم يكونوا يريدون مدريين، كان لديهم أسلوبهم الحربي الذي تقوده شهامة مستقلة تمنعهم من الاعتراف بسيد يخضعون له، وكانوا يعتقدون أنهم لا مثيل لهم في الاشتباك الفردي وفي حرب الكمائن والمفاجأة، ولم يكن الهروب في نظرهم خطأً من قيمتهم، حتى أمام أصغر قوة، لأن هروبهم في كثير من الأحيان مجرد خدعة. حيث كان المبدأ الذي علمه إياهم الأمير عبد القادر هو أن يضربوا بالعدو بقدر ما يستطيعون دون تعريض أنفسهم للضرر (شارل هنري تشرشل، 1974: 141). وتتكون الخيالة من كتائب تضم كل منها ألف فارس بقيادة آغا، والكتيبة تُقسم إلى سرايا أو كواكب، عدد أفراد الواحدة خمسين فارساً بإمارة سيّاف (فريدة قاسي، 2012: 203).

- المدفعية:

سلح المدفعية هو القوة الثالثة في جيش الأمير النظامي، يسمى قائده بالباش طوبجي، يتألف من 240 عنصراً على 20 مدفعاً بمعدل 12 جندياً لكل مدفع بإمرة رئيس ونائب.

كما توجد فرقة الحرس الأميري المتكونة من 500 جندي لحماية الأمير ليلاً ونهاراً، وكانت أسلحتهم محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بالمرجان (فريدة قاسي، 2012: 204).

2.1- الجيش غير النظامي:

أما القوة العسكرية الثانية في جيش الأمير هي المتطوعون من مختلف القبائل، يجمعها الخلفاء من القبائل لأغراض الدفاع المحلي أو الاشتراك في العمليات بجانب الجيش النظامي، وجعل الأمير في كل قبيلة مسؤولاً لجمع المتطوعين يدعى الآغا، ويختلف تعدادها حسب الظروف، فقد وصل سنة 1838 حوالي (60 ألف) جندي (شارل هنري تشرشل، 1974: 140).

- **التسليح:** كان جنود الأمير عبد القادر مسلّحين ببنادق فرنسية أو إنجليزية، تأتي من الفارين من الجيش الفرنسي ومن المشتريات من المغرب، وعن طريق القبائل الصحراوية التي تأتي بالأسلحة من تونس وتوقرت وميزاب، أو عن طريق فيقيق وفاس وأولاد سيدي الشيخ، كما كان يصنع البارود في تلمسان، معسكر، مليانة، المدية وتاقدمت، ولتأمين حاجياته من السلاح دون الحاجة للخارج أقام مصهرة لصنع المدافع في تلمسان وأخرى في مليانة لصنع البارود والبنادق (جورج الراسي، 2008: 44)، كما أنشأ مصنعاً للمدافع في تلمسان يسيّره جندي إسباني هارب جاء عبر المغرب، ومصنع للأسلحة في مليانة؛ يضم منجماً للحديد، ويشرف عليه عمال أوروبيون أحضرهم ميلود بن عراش من فرنسا عندما ذهب إلى هناك بعد فترة من معاهدة التافنة (Alex Bellemare, 1863: 227-228).

وزوّد الأمير كل الأغاليك التي تحت حكمه بالخياطين، وصانعي الأسلحة، وصانعي السروج، لصنع الملابس اللازمة للجيش، وإصلاح الأسلحة وأدوات السروج. وقد اعترف أليكس باليمار بعبقريّة الأمير عبد القادر، فكتب:

«يظهر لنا هذا الشاب العبقرى الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره وهو يتصارع مع صعوبات الحكم، ويصل في غضون سنوات قليلة إلى تشكيل قوة عظيمة لا جدال فيها، بدلاً من القوى التي كانت تمزق بعضها البعض؛ لإخضاع الشعب العربي تحت يده القوية، وتعديل هذا المجتمع في النهاية حتى أسسه»، ويضيف: «ماذا كان عبد القادر ليفعل لو أن فرنسا أعطته الوقت ليستفيد من خطئنا في تافنة؟ إن الفكرة مخيفة عندما نأخذ في الاعتبار أن الأمر استغرق سبع سنوات من القتال، ومائة ألف رجل من

الجيش الرائد في العالم، لتدمير ما بناه الأمير في عامين وخمسة أشهر» (Alex Bellemare, 1863: 241-242).

2- إستراتيجية الأمير عبد القادر العسكرية:

1.2- الخطوط الداخلية:

- الخط الساحلي: أحاط الأمير عبد القادر المنطقة الساحلية بمخافر أمامية تؤمن حراستها القبائل المجاورة للبحر والموازية له (أديب حرب، 2005: 327)، وجعل مقاتليها حراسا ووسيلة ضغط اقتصادي على الحاميات الاستعمارية بمنع دخول المؤونة لأسواقها ومن هذه القبائل: الغرابة، قبائل الدوائر، الزمالة، بني عامر في ناحية وهران، قبائل البرجية وأبي شداغة على سهل أغريس، والحجاجطة في ناحية الجزائر. واعتمد على المحاصرة والمناوشة بالهجومات الخاطفة والمباغطة، فتشكلت جبهة متقدمة في الاستراتيجية الحربية للأمير من تلك القبائل.

- خط المدن الداخلية: يأتي بعد الأول، ويمتد على سلسلة الأطلس التلي، به تحصينات تشمل المدن الموازية للساحل كتلمسان، معسكر، مليانة، المديّة (برنو إيتين، 1995: 171) وحزمة (البويرة) التي تصل التل بالسهوب وتتميز بمناطق مرتفعة محصنة طبيعيا، شكّلت خطا دفاعيا رئيسيا يسد الطريق أمام أي تقدم محتمل للفرنسيين نحو الداخل (ناصر الدين سعيدوني، 2001: 216) بعد معاهدتي ديميشال سنة 1834 والتافنة سنة 1837، ووضع الأمير خطة مضمونها تهديم هذه المدن إذا حاول الاستعمار الاستيلاء عليها حتى لا يتخذها مناطق للاستقرار ومنطلقا للتوسع في داخل البلاد.

ولحماية نفسه من الضربات واحتواء القبائل المضطربة في الصحراء، قام بتحسين نفسه على حافة التل بإقامة مراكز محصنة جنوب المناطق التلية على مشارف الصحراء تكون خطا دفاعيا يلتجئ إليه ويتحصن خلفها مثل سبدو، سعيدة، تاقدمت، تازة، بوغار، بلخروب، وبسكرة (Commandant J. Pichon, s d: 84)، أشير والقلعة، وهي تمثل حلقة وصل تربط الطرق التجارية بين التل والصحراء، ومن خلالها استطاع الأمير السيطرة على القبائل الممتنعة عن أداء المساعدات المالية.

2.2- تشييد القلاع:

وهي منشآت عسكرية في منطقة الاتصال بين التل والصحراء كجبهات للصمود، خاصة أنها مناطق مهمة اقتصاديا، وكانت هذه المراكز عبارة عن قلاع ومستودعات (فريدة قاسي، 2012: 202-208)، وتميزت بالتشابه في الوعورة والارتفاع لجعلها منيعة ومحصنة بشكل طبيعي مما يجعلها مناسبة لمتطلبات الحرب، وبُنيت في أماكن تتوفر على مصادر المياه كالأودية والعيون والمنايع، مما جعلها استراتيجية عسكرية واقتصادية واجتماعيا تتوفر على كل شروط الأمن والاستقرار من جهة، وتضمن العيش الطيب بوفرة المياه ونقاء الهواء من جهة أخرى.

3.2- استراتيجية توحيد الصف:

أهم ما بدأ به الأمير سياسته هو توحيد القبائل تحت لواء المقاومة، لأن الوحدة هي الكفيل بصد المشروع الاستعماري، ذلك أن الأمير عبد القادر آمن إيمانا عميقا بضرورة الاتحاد المطلق بين مواطنيه لتحقيق الاستقلال (شارل هنري تشرشل، 1974: 65)، لكن بعض القبائل رأت غير ذلك، واختارت الحكم الفرنسي كقبيلتي الدوائر والزماله، حيث غادرت تلمسان إلى حاكم وهران تريزيل (Trezel)، فاحتج الأمير على ذلك لأنه يخالف ما جاء في معاهدة ديميشال (لا يقبل أي طرف لاجئ الطرف الآخر)، فأعلن الجهاد مجددا وانتصر في معركة المقطع في 1 جويلية 1836 (ودان بوغفالة، 2014: 161)، وفي جنوب التيطري تمرّدت قبائل أولاد مختار والزناخرة وبني موسى وبني عبيد، فسار إليها رفقة ابن علال خليفة مليانة بقوة بلغت أربعة عشر رجلا سنة 1838، أين خاطبها باللين ثم باستخدام القوة حتى استسلمت لسلطته، وكان لذلك أثره في خضوع القبائل موجودة الحدود الجنوبية لإقليم قسنطينة (شارل هنري تشرشل، 1974: 127-128). وقبيلتي عمورة والزواتنة في منطقة القبائل في جانفي 1837، وبلاد الزاب في ماي 1838 وتعيين خليفة له فيها.

وقد حارب القبائل الموالية للاستعمار استنادا لأحكام الشريعة الإسلامية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المتحنة، آية 1)، وكان موقف الأمير من حربه للمنشقين يهدف إلى

التماسك بين الجزائريين لكي لا تضعف المقاومة بما يخدم المستعمر، ولكي لا ينتشر نفس السلوك في كل القبائل، فتكون الاستكانة لأنها لن تتوقف عند الإمداد بالمؤن بل تتعداه إلى الإمداد بالمقاتلين.

كما دعا القبائل الجنوبية إلى الطاعة، فقبلت قبائل الأغواط، لكن محمد الصغير التيجاني رفض الطاعة والوحدة، وأمام هذا الموقف تخوَّف الأمير عبد القادر من أن يسري هذا السلوك لدى الناس، فحاصره مدة ستة شهور في 12 جويلية 1838 حتى طلب الأمان في 19 نوفمبر 1838 وسلم المدينة وقبل شروط الأمير عبد القادر (محمد بن عبد القادر، 1903: 196). ولم يكن الهدف من حملة الأمير عبد القادر على التيجانيين النيل منهم، وإنما تحقيق التماسك والوحدة، فلا سبيل للنصر دون وحدة الصف (ودان بوغفالة، 2014: 165)، وهو ما تتطلبه مواجهة العدو، ونص عليه الدين في قوله تعالى: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ». (الأنفال، آية 46)

4.2 - الخطط العسكرية:

- سرعة التحرك لإرهاق العدو، حيث أنه يُقدم على الخطر بسخريّة كبيرة (Alex Bellemare, 1863: 32-33)، و«لا تعيقه النيران ولا المنحدرات، تمكّن بشجاعته وإيمانه ورجاله من محاربة فرنسا لمدة خمس عشرة سنة دون أن يتأثر بعدد جنودها، ودون أن ينهكه التعب من الحرب» (Klock Elie, 1848: 18). وهو الأمر الذي فاجأ ضباط جيش الاحتلال المتكونين عسكرياً في كليات حربية، وجعلهم يتنافسون على محاربته.

- حفر الخنادق وتركيز مشاته النظاميين حيث كان يحارب الجيش الكبير بأقل عدد ممكن لضمان تنقل أسهل، وهنا يعترف الضابط ريني دي بان "كانت القوات الفرنسية تطارده بحذر خوفاً من الخسائر بينما كان يتحرك بحرية في اتجاهات عدة، وإذا أنهك من طرفنا يعود ويضربنا في الصميم" (Le Marquis de la Tour-du-Pin René, 1846: 12-13).

- إقامة مخازن للحبوب تحت الأرض تزود القوات والأهالي في حالة الحصار أو التضيق والمطاردة، حيث أنه كان يدرك أن أمد الحرب يطول.

- محاصرة المدن الساحلية حيث يتواجد الفرنسيون والتضييق عليها من قبل القبائل التابعة للأمير، وهو ما جعل القوات الفرنسية في حالة حصار بين التل والبحر.

- السرية وإخفاء خططه الحربية والتكتيم على تنظيمه العسكري وعدد قواته وعدته، حيث يقول راسلوف الدانماركي العامل بالجيش الفرنسي سنة 1841: "إنه من الصعب معرفة طبيعة التنظيم العسكري الذي يقوم عليه جيش الأمير وبخاصة فيما يتعلق بالناحية الإحصائية، فالمسلمون لا يحبون أن يعرف أحد إحصائياتهم الدقيقة بشكل من الأشكال" (ناصر الدين سعيدوني، 2001: 219).

- المباغتة وهي استراتيجية وتكتيكية، فالأولى تهدف إلى تخطيط كامل وهجومي وتنفيذ عمليات تُفرض على العدو، وتسعى لتشتيت وحداته وإضعاف معنوياتها، أما الثانية فتهدف لإجراء مناورات لتجزئة قوات العدو أو ضرب أطرافه، وقد اشتهر الأمير بالهجوم المباغت والسريع لتحقيق هدف مهم وهو شل حركة العدو. وكان مونتانيك قد عبّر في رسالة له في 20 جانفي 1840 من وهران عن حالة الضجر من رؤية فشل الخطط والأساليب المتبعة ضد الأمير عبد القادر رغم فارق الإمكانيات، معتبرا القبض عليه أمرا صعبا: "تعتقدون أيها القادة الشجعان أن طائر الصحراء ذلك سيبقى في انتظاركم حتى تقضوا عليه، لا هو ليس أحقما بهذا القدر" (Montagnac, 1864: 71).

- الاقتصاد في القوة بمقاتلة العدو دون المجازفة بالجند والعتاد، أي المقارنة بين قدرات وحداته وأهدافها (أديب حرب، 2005: 350-351) حسب تعداد العدو، وقد مكنته هذه الاستراتيجية من الانتصارات والحفاظ على قواته مع إرباك العدو.

- الثقة بالنفس والروح المعنوية العالية (أديب حرب، 2005: 372)، وهي مستمدة من الإيمان بالوطن والجهاد في سبيل تحريره كواجب مقدس أمر به الله تعالى، وعمل الأمير على تذكير جنوده دائما بالصبر على مقاتلة العدو مهما كانت قوته. وقد كتب لبيجو سنة 1841: "نحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرها كيف شئنا، ومما عُلّم في كتب التاريخ القديمة أن العرب يبتهجون في معامع

القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه، فلا يخطر ببالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم" (محمد بن عبد القادر، 1903: 259)، «فكان الأمير بعد كل هزيمة يعود من جديد وأكثر قوة، وبدون أن يتغير موقفه، ويبقى سيّداً على المناطق البعيدة عن قذائفنا» (Alex Bellemare, 1863: 150). وكتب الدكتور بونافون (Bonnafont) الملحق بالجيش الفرنسي معلّقاً على انتصارات الأمير عبد القادر سنة 1834 قائلاً: «كان الأمير يخرج من هزائمه بسرعة، وينتصر على الفرنسيين وحلفائهم فتتصاعد قوته» (Bonnafont, 1880: 178).

5.2 - العاصمة المتنقلة:

تعتبر الزمالة من أبرز إبداعات الأمير العسكرية، فقد جعلها عاصمة متنقلة لتسهيل التنقل وخفة الحركة، وهي تتلاءم مع متطلبات حرب العصابات من ناحية، وتشمل كل المرافق والخدمات الضرورية من ناحية ثانية حتى مكتبته الغنية، وكتب عنها بحسرة بعد سقوطها: «كانت زمالتي تضم صناع السلاح والسروج والخياطين وجميع الحرف اللازمة لتنظيمها، وكانت تشمل على سوق عامرة يتردد عليها عرب التل» (جورج الراسي، 2008: 50-51)، فقد أنشأها أمام تزايد الضغط الفرنسي وقمعه للسكان، حيث قرر أن يُبعد عن مسرح الحرب كل أولئك الذين لا يمكنه التخلي عنهم، والذين لا يستطيع عند الحاجة أن ينقذهم، فأرسلهم للزمالة التي شكّلت ملجأً آمناً، وأصبحت عاصمة متنقلة ضمّت أكثر من عشرين ألف نسمة، ونُظّمت حسب ترتيب عسكري محكم عبر أربع دوائر، كل دائرة تعرف مكانها ووظيفتها (شارل هنري تشرشل، 1974: 198-199)، حيث كان التنظيم معروفاً دائماً متّحداً المركز، لكل دوار، وكل عائلة، وكل فرد مكانه الثابت والمميز، وفقاً لمرتبته، وفائدته، ووظائفه، أو الثقة التي يستحقها (Commandant J. Pichon, s d: 39).

ففي الوسط توجد خيمة الأمير محاطة بخيم أقربائه وخدمه، وتضم هذه الدائرة الأولى خمسة دواوير، والدائرة الثانية تضم خلفاء الأمير الكبار وعائلاتهم وجندهم وتمثل عشرة دواوير، أما الدائرة الثالثة فتضم الحشم وفيمهم 207 دواراً، وكل دوار

يحتوي على 15-20 خيمة، والدائرة الرابعة تضم 146 دوارا أي ما مجموعه 368 دوارا في الزمالة (فريدة قاسي، 2012: 236).

4- تأثير التنظيم العسكري للأمير عبد القادر على جيش الاحتلال:

إن التنظيم العسكري لجيش الأمير عبد القادر ساهم في تأخير تنفيذ المشروع الاستعماري، وخلق صعوبات جمّة أمام قادة جيش الاحتلال الفرنسي الذين اعترفوا بعظمة الأمير عبد القادر العسكرية كحقيقة واقعة مع أنهم كانوا يبرّرون بها فشلهم في مجابهته وهزيمته حسب القاعدة التي تقول: "عظمتك في عظمة عدوك"، حيث أرادوا أن يثبتوا لأنفسهم مكانة عالية لأنهم كانوا يحاربون خصما عنيدا وجديرا بهم (شارل هنري تشرشل، 1974: 7)، وهذا ما يدل على قدرة الأمير عبد القادر على التأثير الكبير على عمل توسع الجيش الفرنسي وعلى معنويات ضباطه وجنوده.

أفشل الأمير كل خطط قادة جيش الاحتلال في التوغل للداخل وجعلهم محاصرين في المناطق الساحلية، وهذا ما دفع ديميشال (Desmichels) إلى طلب الصلح من أجل الحد من قوة الأمير وتأثيره، خاصة بعد انتصاره في الكرمة في 26 ماي 1833، وقد أرجع بيليسي (Pellissier) الفشل الفرنسي إلى الحذر ونقص الشجاعة لدى ديميشال (Pellissier de Reynaud, 1854: 347-348). ويعترف الجنرال بروصار (Brossard) بأن عجزهم أمام تحقيق نصر حاسم على الأمير هو ما جعلهم يلجأون إلى طلب الصلح الذي كان في معاهدة ديميشال 26 فيفري 1834، فكتب: "أمام قوة الأمير قارنت فرنسا بين حرب طويلة ومنهكة وغير مضمونة النتائج، أو صلح يضمن لها الاستقرار في المدن الساحلية مقابل امتيازات تجارية" (Brossard, 1838: 17)، وادّعى بأن الأمير قام بتحركات ضد فرنسا بواسطة تسامحها شبه الرسمي معه (Brossard, 1838: 65). فالفرنسيون يحاولون دائما عدم التصريح المطلق بقوة الجزائريين.

ولم تكن قوة واستراتيجية الأمير عبد القادر تؤثر على الجيش الفرنسي فقط، بل تعدّته إلى القبائل المتحالفة مع فرنسا والتي أصبحت تتبع سلطة الأمير بعد هزيمة الفرنسيين، وفي هذا كتب الضابط السامي في قيادة الأركان ريني دي بان (René de la

(Tour-du-Pin): «رغم هزائمه فإن الأمير عبد القادر كان -بدون ضجيج ولا حرب- لا ينتزع (أراضيها) فحسب بل حتى رجالنا، فكانت القبائل المختلفة تهاجر من حدودنا لتنضم للأمير» (Le Marquis de la Tour-du-Pin René, 1846: 6)، فقد تمكن الأمير من عزل فرنسا، وبالمقابل مدّ سلطته على مختلف القبائل غير الخاضعة.

وكتب الجنرال بروصار (Brossard) أن الأمير استغل ظل الصلح ليوطّد قوته في كل المقاطعات التي تحت يده، وبدأ بدعم عرب قسنطينة باستثناء الذين هم بالصحراء إما مستقلين أو تابعين لأحمد باي (Brossard, 1838: 28)، كما اعتبر آخرون صلح دي ميشال خطأً كبيراً لأنه اعترف بالأمير عبد القادر كأمر للمؤمنين ومركز للمقاومة العربية، وكحاجٍ سامي للفكرة الإسلامية يؤشر على جوازات مرور المسيحيين بقوة معتبرة تتزايد بفضل هذا الصلح (Léon Plée, 1866: 16) الذي كان موازياً للاعتراف باستقلال بايلك وهران، ومؤسساً لدولة عربية تحت سلطة الأمير عبد القادر، الذي نمت قوته وزادت سمعته ومكانته وحرية حركته، وأخضع لسلطته كل وهران من الشلف حتى المملكة المغربية، وزرع الأمل بنشر الأمن والتهدئة بين كل قبائل الشرق وسهل متيجة مما أدى لتراجع الكبرياء الفرنسي بسبب هذه الهزيمة (Un soldat d'Afrique, s d: 128).

كما اعتبر الدكتور بونافو (Bonnafont) الطبيب العسكري أن صلح ديميشال كان السبب في تصاعد قوة الأمير وجعله نِدّاً للحكام العامين، وسبباً في إهانتهم كقوله للمارشال دارلون (d'Erlon) "لك البحر ولي الأرض" (Bonnafont, 1880: 173)، كما أطلق العنان لمشاريعه الطموحة لإخضاع مدينة الجزائر والтитيري ثم قسنطينة فيما بعد، واعترف قائلاً: «إن الضعف الذي أصابنا حياله، وتزايد قوته، سمح له باستشعار قوته على كل الإيالة وكأنه يوغرطة جديد يحلم بطردنا» (Bonnafont, 1880: 178)، لذلك لما جاء الجنرال درويي دالون (Drouet d'Erlon) إلى الحكومة العامة في جويلية 1834 تنكّر لاتفاقية ديميشال (المخزية) وعوّضه بالجنرال تريزيل (Trézel) نصير الاحتلال (d'Iderville, H, 1882: 9). ورغم تجدد الحرب إلا أن الفرنسيين لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم على الأمير، ليس في الغرب الجزائري وإنما في كامل الأراضي الخاضعة لسلطته، وقد انهزم تريزيل في المقطع وخسر (300) من جنوده، واهتزت سلطة ومكانة

الفرنسيين لدى القبائل المترددة أين انضمت للأمير عبد القادر (Un soldat d'Afrique, s, d: 128-129)، واعترف الضابط ريني دي بان (René du-Pin): «كانت القوات الفرنسية تطارده بحذر خوفا من الخسائر، بينما كان يتحرك بحرية في اتجاهات عدة، وإذا أنهك من طرفنا يعود ويضربنا في الصميم» (Le Marquis de la Tour-du-Pin René, 1846: 12-13)، وساهمت هذه الهزائم المتكررة في لجوء الفرنسيين لطلب صلح جديد وهو صلح التافنة 30 ماي 1837.

وكان بيجو (Bugeaud) مستعجلا في المفاوضة، وأرادها أن تنتهي بنجاح مهما كانت العواقب، لأنه يسعى لتحقيق انتصار معنوي وسياسي، خاصة وأن إجراءات حملة قسنطينة كانت تقتضي التوصل لاتفاق، وهو ما تم فعلا حيث أعترف بالأمير سلطانا على ثلثي الجزائر دون أن يعترف صراحة بالسيادة الفرنسية (شارل هنري تشرشل، 1974: 20-21).

وعلق الدكتور بونافون: «مثل الماضي بقينا محاصرين في أريزو ومستغانم، وبقي الأمير سيّدا على كل المناطق الواقعة خارج نطاق مدافعنا» (Bonnafont, 1880: 285)، وكتب بيليمار (Bellemare) أن معاهدة التافنة كانت خطأ استغله الأمير في التوسع، مما تطلّب جهد سبع سنوات حرب وتسخير مائة ألف رجل لأول جيش في العالم للقضاء على ما دشّنه الأمير في ظرف سنتين وخمسة أشهر (Alex Bellemare, 1863: 161). كما انتقد النقيب بلان (Blanc) سياسة القيادة العليا للجيش التي أدت أخطاؤها إلى مد نفوذ الأمير وتمكينه من إخضاع القبائل الخارجة عن سلطته بسبب اعتراف معاهدتي ديميشال والتافنة بسلطة الأمير على معظم الجزائر (Blanc, 1857: 45-46).

واعترف الفرنسيون أن الأمير تسبب لهم بالكثير من الهزائم والمتاعب. وعن الإعياء الذي تسبب فيه الأمير لقادة الجيش الفرنسي كتب النقيب فابار (Fabar): «كان اهتمام الوحدات العسكرية بين (1846-1847) ليس القبض على الأمير، وإنما إرساء السلم وحماية القبائل المخلصة لنا، ومعاقبة (المتمردين) الثائرين، ولمنع الأمير من ضرب

الأولى (المخلصين لفرنسا)، ومنعه من الاستقرار عند الثانية، فقد كان سيّدا على البلد بقدرة كبيرة على تعبئة كل السكان» (Fabar, P. d, 1847: 80-81).

ونظرا لقوة الأمير وفشل القادة العسكريين الفرنسيين، قرّرت الحكومة الفرنسية سنة 1836 إرسال الجنرال بيجو بثلاثة فيالق (لتحرير) معسكر التافنة، ومحو الضعف الذي لحق بالجيش الفرنسي في المقطع، وإعادة الثقة إليه (d'Ideville, H, 1882: 12)، ولأجل تحقيق ذلك ركّز بيجو على شن حرب مستمرة في كامل البلاد لإرهاق الأمير، وضربه في كل مكان لكي لا يترك له فرصة للأمن والراحة، وضرب أماكن النساء والأطفال والقطعان، ولإنجاح هذا المخطط اشترط أن تتوفر وهران على (15000) جندي مختارين بعناية مع توفير ضباط شاب يطمحون للوصول إلى مراتب سامية في الجيش. (d'Ideville, H, 1882: 47)

وكان بيجو قد عمل كل ما بوسعه لملاحقة الأمير منذ سنة 1839 في كل الوديان والجبال (Alex Bellemare, 1863: 274)، وقرر الهجوم على مواقع الأمير التي تضم مخازن الطعام وال السلاح، وزرع الخوف في القرى بالهجوم المفاجئ، وكانت القوات الفرنسية متتابعة في حملاتها في مطاردة العرب (المتمردين) لإجبارهم على الاستسلام حيث كان المخطط هو حملات متواصلة تدوم سبع سنوات شتاءً وصيفا (Un soldat d'Afrique, s d: 152). وأصبح الجنرالات بيليسي (Pellissier) كمهاون (Mac Mahon) راندون (Randon) بوسكي (Bosquet) كانروبار (Canrobert) سانت أرنو (Saint Arnaud) فيلون (Vaillant) بيدو (Bedeau) كامون (Camon) كافينياك (Canignac) شانقارني (Changarnier) لاموريسيار (Lamoricière) دوفيفي (Duvivier) في تنافس على مجد ملاحقة الأمير وهزيمته لأنه يعتبر أكبر انتصار لهم (Alex Bellemare, 1863: 275). وقد أصبحت مجابهة الأمير عبد القادر بالنسبة للضباط الفرنسيين وسيلة لاكتساب الشرف والعسكر والحصول على الترقية.

وكان هذا التنافس يعكس تأثير انتصارات الأمير عبد القادر على معنويات الجيش الفرنسي، وعلى الضباط الذين أصبحوا يدخلون في مغامرات غير مضمونة

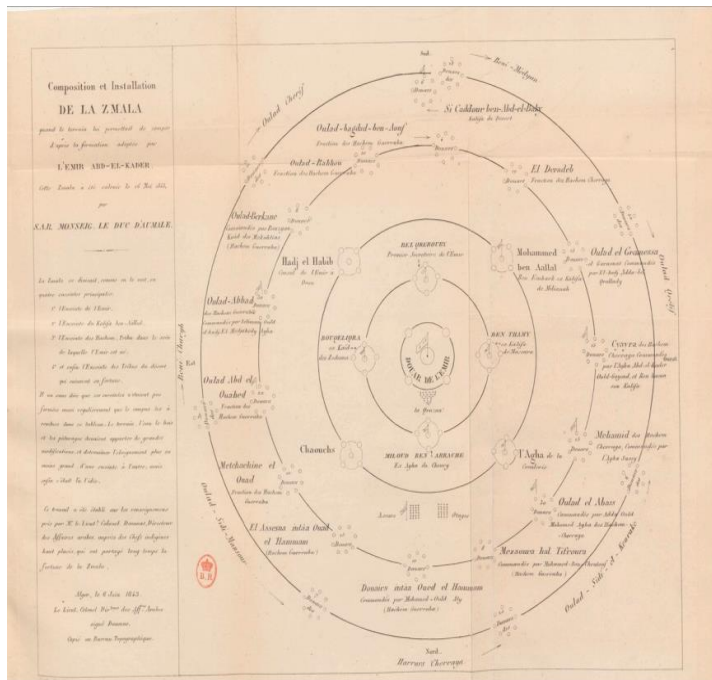
النتائج لأجل الظفر عليه، وكان من أبرز هؤلاء دي مونتانيك (Lucien de Montagnac) الذي أُحبط من سرعة تحركات الأمير، ومن الحصول على المعلومات الموثوقة حول مكان وجوده، وهو ما جعله يتهوّر في ملاحقة الأمير في سيدي ابراهيم في شهر سبتمبر 1845 حتى هلك (عدنان المنتصر، 2010: 114)، حيث بمجرد سماعه بوجود الأمير قرب الغزوات أين كان معسكر مونتانيك حتى خرج في 21 سبتمبر على رأس قوة مكونة من (550) رجلا و(62) خيّالا لملاحقة بعض خيّالة الأمير، فكان من أوائل الهالكين، وكتب بيليسي عن الحادثة أن «جنودنا ماتوا بسبب التفوق العددي للخصم» (Pellissier de Reynaud, 1854: 180-181)، في محاولة تقزيم الاستراتيجية العسكرية للأمير عبد القادر.

أبان الأمير عبد القادر عن قدرة كبيرة في التنظيم العسكري وقيادة الحرب ضد أكبر جيش أوربي عدة وعددا، ورغم عداوة الفرنسيين له إلا أنهم اعترفوا له بالحنكة العسكرية والجدارة بالاحترام حيث كتب موريس دي بونغران (Maurice de Bongrain) - الذي استقى معلوماته من العسكريين والأسرى الفرنسيين- بشأن استحقاق الأمير الاحترام والتقدير: «كان رجلا استطاع طيلة أربعة عشر عاما ودون أن تكون له ثروة سوى إرادته، ومن سلطة سوى الكلمة، أن يثير إفريقيا من أقصاها إلى أدناها، وأن يجتد بذلك جموعا من الأعداء، ويضع على المحك السمعة العريقة للجيش الفرنسية، وأن يلفت إليه أنظار العالم المذهول» (Maurice de Bongrain, 1864: 16).

وقد اعترف الماريشال سولت (Soult) وزير الحربية الفرنسي سنة 1843 بمكانة الأمير عبد القادر لأحد أصدقائه قائلا: بأنه لا يوجد في العالم إلا ثلاثة رجال يمكن أن نصفهم بالكبار، وكلهم من العالم الإسلامي، منهم الأمير عبد القادر (Alex Bellemare, 1863: 3)، ويظهر الاعتراف بمكانة الأمير جليا من خلال كثرة الكتابات حوله من قبل الضباط الفرنسيين الذين شاهدوه في الميادين العسكرية المختلفة، ومن خلال مراسلاتهم التي امتلأت بأخباره وأخبار دولته وتنظيماته، وكتابات الأسرى الذي وقعوا تحت يده على اختلاف رتبهم.

- خاتمة:

جسدت تجربة الأمير عبد القادر استمرارية لكيان الدولة الجزائرية بقيادة وطنية في ظرف صعب شكّل بدوره تحدّيًا صارخًا، لكن رغم ذلك استطاع الأمير عبد القادر تجاوز كل الصعاب وتأسيس دولة متكاملة الأركان، وعلى الصعيد العسكري أسس الأمير جيشًا عصريًا رغم الاحتلال، توفر هذا الجيش على كل تنظيمات الجيوش النظامية المعاصرة، استطاع بواسطته مجابهة الجيش الفرنسي لمدة خمس عشرة سنة وهزيمته في معارك كثيرة، حيث هزم معظم القادة العسكريين الفرنسيين البارزين وأفشل خططهم العسكرية، وحطّم أمانهم في الاحتلال السهل للجزائر، كما أنه بانتصاراته المتكررة أربك الحكومة الفرنسية وجعلها تقرر بحالة الحرب القوية التي استنزفت جيشها وأثّرت على معنوياته.



- Renseignements historiques sur la zmala d'Abdel-Kader, tombée au pouvoir de S. A. R. Mgr le duc d'Aumale dans la ghazia exécutée le 16 mai 1843 à Taguine, (Paris: imprimerie Lange Lévy et Compagnie, 1843), p 17.

- قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- برنو إيتين، (1995). الأمير عبد القادر الجزائري، تر: المهندس ميشيل خوري، بيروت: دار عطية للنشر.
- بوغوفالة ودان، (2014). الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر.
- تشرشل شارل هنري، (1974). حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله. تونس: الدار التونسية للنشر.
- حرب أديب، (2005). التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ج 1، الجزائر: دار الرائد للكتاب.
- الراسي جورج، (2008). الدين والدولة في الجزائر، من الأمير عبد القادر إلى عبد القادر. الجزائر: دار القصبة للنشر.
- سعيدوني ناصر الدين، (2001). عصر الأمير عبد القادر الجزائري، الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
- قاسي فريدة، (2012). الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832-1847)، عنابة: منشورات بونة للبحوث والدراسات.
- محمد بن الأمير عبد القادر، (1903). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الاسكندرية: المطبعة التجارية.
- المنتصر عدنان، (2010). «الأمير عبد القادر في مذكرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر، المصادر والتمثيلات»، روافد، جامعة سوسة، تونس، ع 15، (103-128).

- Alex Bellemare, (1863). Abdel Kader sa vie politique et militaire, Paris: Librairie de L. Hachette .
- Blanc capitaine, (1857). Récits d'un officier d'Afrique, Tours: Alfred mame et fils éditeurs.
- Bonnafont (docteur), (1881). Douze ans en Algérie 1830-1842, Paris: Dentu éditeur.
- Brossard (général), (1838). Mélanges sur l'Afrique, Perpignan: imprimerie de jean Baptiste Alzine.



- Commandant J. Pichon, (s d). Ab el Kader, sa jeunesse, son rôle politique et religieux, son rôle militaire, sa captivité, sa mort (1807-1883), Paris: Henri Charles-Lavauzelle éditeur militaire.
- d'Ideville, H, (1882). le maréchal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849, t 2, Paris; librairie de Firmin-idot.
- Fabar, P. d, (1847). L'Algérie et l'opinion, Corréard éditeur d'ouvrages militaires, Paris: J. Corréard éditeur d'ouvrages militaires.
- Klock Elie, (1848). Portrait légende sur Abd-el-Kader, ses premières victoires, son arrivée à Toulon, Paris: Fiquet libraire-éditeur.
- Le Marquis de la Tour-du-Pin René, (1846). Dernières opérations de l'armée d'Afrique, (imprimerie de Beauvarlet.
- Léon Plée, (1866). Abd-el-Kader, nos soldats, nos généraux et la guerre d'Afrique, Paris: Gustave Barba libraire-éditeur.
- Maurice de Bongrain, (1864). Les captifs de la Deira d'Abd-el-Kader, Sidi Brahim et Sidi Moussa 1845-1846, souvenir d la vie militaire en Afrique, Paris: Librairie de Lefort.
- Montagnac, (1885). Lettres d'un soldat, neuf années de campagnes en Algérie, correspondance inédite du colonel de Montagnac, Paris: E. Plon, Nourrit imprimeurs-éditeurs.
- Pellissier de Reynaud, (1854). Annales Algériennes, t 1, Paris: Librairie militaire.
- Renseignements historiques sur la zmala d'Abdel-Kader, tombée au pouvoir de S. A. R. Mgr le duc d'Aumale dans la ghazia exécutée le 16 mai 1843 à Taguine, Paris: imprimerie Lange Lévy et Compagnie, (1843).
- Un soldat d'Afrique, (s d). l'Algérie, Limoges: Librairie du xx siècle.